التظالم من الحكام

في أدب العصر الاسلامي والاموي

الدكتور باقر عبدالغني
مدرس في قسم اللغة العربية

تعهّد القرآن الكريم بالاصلاح والتهذيب هذا الضعف الانساني الذي يتمثل في نزعات ورغبات وأهواء تخرج بصاحبها عن الجادة وتبعد عن الاعتدال وهى أمراض اجتماعية تصيب بأذاها فريقاً من أفراد المجتمع وتربك أمور حياتهم وتعطل رسالة الحياة العامة عن المضي في عملها الخيِّر . ومن هذه النزعات والرغبات حب الانسان المفرط للمال وامتلاك الثروات على اختلاف أنواعها مما يفيض عن حاجاته المعقولة ، والاخذ بأسباب الترف والنعومة فى العيش وما يستتبع ذلك من بذخ واسراف وتبذير . ومنها ميله الى الحكم والتسلط واستغلال النفوذ فى سبيل منافع ذاتية ، وحكمه بالهوى وظلمه ومحاباته ، وتجنّبه للحق وتنكّره للسنن والقوانين الى غير ذلك من أنواع السلوك مما تعارفت الاخلاق على استنكاره واستهجانه وتواصت الاديان على استبشاعه وتحريمه وتواضعت القوانين على منعه وبطلانه .

وفى القرآن الكريم مجموعة كبيرة من النصائح والتوجيهات والتشريعات التى تعالج هذا الجانب من حياة الفرد . فقد عاقب على السرقة وحرّم الرّبا ونهى عن بخس الناس حقوقهم . قال تعالى (والسارقُ والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاءً بما كسبا ، ونكالا من الله والله عزيز حكيم)[1] . (وأخذهم الربا وقد نهوا عنه وأكلهم أموال الناس بالباطل واعتدْنا للكافرين منهم عذاباً أليماً)[2] .

---

(١) سورة المائدة/الآية ٣٨ .
(٢) سورة النساء/الآية ١٦١ .

وموقف القرآن من ذوى الحكومة والسلطان والولاية على الناس مثله مع المسرفين فى جمع الثروة والنعيم . اذ ان اسراف هاتين الطائفتين من الناس وتجاوزهما حدود الاعتدال مما يؤدّى الى الحاق الاذى بالآخرين . فالسارق والمرابي والتاجر الجشع انما يتحين أولهم غفلة هذا وثانيهم حاجة ذاك ليحصل على ما ليس له حق به من أموال الآخرين . وحين يحكم الحاكم بهواه ويجور فى أحكامه فهو ظالم لاشك لطرف من أطراف الخصومة اذ يمكّن احدها من اكتساب ما ليس له حق في اكتسابه ولهذا أكثر القرآن من وصاياه بالعدل فى الحكومة واكثر من تحذيره وتوعّده لمن يقضي بالهوى ويأخذ بالظنّة ويخضع في أحكامه للمؤثرات المادية ويميل مع عواطف الرضا والغضب والاثرة والمحاباة . قال تعالى (يأيّها الذين آمنوا كونوا قوّامين بالقسْط ، شُهداءَ لله ... فلا تتبعوا الهوىٰ أن تعدلوا ...)[٣] . (انّ الله يأمركم أن تؤدّوا الامانات الى أهلها واذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل ...)[٤] ، (ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها الى الحكام لتأكلوا فريقا من أموال الناس بالاثم وانتم تعلمون)[٥] . (يأيّها الذين آمنوا كونوا قوّامين لله ، شهداء بالقسْط ولا يجر منّكم شَنَئانُ قومٍ على أن لا تعدلوا ، اعْدِلوا هو أقربُ للتقوى واتقوا الله ، ان الله خبير بما تعلمون)[٦] . (يا داود إنّا جعلناك خليفةً في الأرض فاحْكم بين الناس بالحقّ ولا تتّبع الهوى فيضلّك عن سبيل الله)[٧] .

هذه صور من التعاليم القرآنية التي تتصل بسيرة الناس وتنظيم العلاقات بينهم . واذا كانت هذه التعاليم تسري على الحكّام وأهل السلطة منهم بوصفهم أفرادا من الناس فقد خصهم القرآن بأخرى تتناولهم دون

---

(٣) سورة النساء/الآية ١٣٥ .
(٤) سورة النساء/الآية ٥٨ .
(٥) سورة البقرة/الآية ١٨٨ .
(٦) سورة المائدة/الآية ٨ .
(٧) سورة ص/الآية ٢٦ .

غيرهم بالنصح والهدي والارشاد . ذلك لانهم يختلفون عن العامّة للذى نصبوا اليه أنفسهم من حمل مسؤليات لها فروضها والتزاماتها وتبعاتها . ولانهم آخذوا مكان الصدارة فى الامّة وتولوا رعاية شؤونها فهم اذاً قادة وقدوة للناس . وهم أدرى بهذه الانظمة وفروضها وحدودها . فصدّهم عن الاخذ بها تعطيل لاحكامها وهدم لكيانها . وفى خروجهم عليها ، وهم قادة ، تشجيع لخصومها على الطعن فيها ولاهل الغفلة من انصارها على الازورار عنها . وسيرهم فيها بالهوى والرأى والعاطفة ، وهم قدوة ، دفع لغيرهم على العبث بها والتغافل عنها والتحوير والتبديل في نصوصها • ولهذا أصبحت سيرتهم موضع امتحان ومراقبة وموضع مثل فى الاحسان أو الاساءة .

ولئن كان القرآن قد جاء موجزا مقتضبا في آياته التي تتناول سيرة الولاة وذوى السلطان ، فقد تولى الرسول الاكرم وخلفاؤه الراشدون هذا الباب بالايضاح والتفضيل . فكان أول ما عملوا ، لرسم السيرة المثلى في الحكم ، أن اخذوا أنفسهم بالذى أوصى به القرآن لا يحيدون عنه وحملوها على رياضة نفسية فريدة فى ضبط النفس وكبح العواطف والنزعات ، والتجرد عن الهوى والاثرة والمحاباة ، وفي هواية الحق واشاعة العدل وحب الانصاف وصنع الخير والجميل ، ومقت الظلم ، ومحق الباطل ، وسحق البغي ، واستئصال الفساد . لقد حكموا لله وبما انزله الله . ولم يحكموا لانفسهم بما أملته أهواؤهم . وكان خوفهم من أن يظلموا أشدّ من رغبتهم فى أن يحكموا . وقد راجعوا أنفسهم فى الاحكام مرتين ، حبا بالعدل مرة ، وخوفا من الظلم مرة أخرى •

وكانت قناعتهم بالزهيد من الرزق ثروةً أمّنت نفوسهم من خوف الفقر • فعفوا وكان لهم من عفتهم كنز أغناهم عن أن يمدوا يدا الى أموال الامة • ووقفوا على خدمة الامّة مالهم وأنفسهم . فانقطعوا الى العمل من أجلها وقطعوا عنهم ما كانوا يتعاطونه من أسباب الرزق . وكان أحدهم اذا عرضت له حاجة فى بيت المال جعل ذلك ديناً عليه يردّه فى حياته أو يوصي بردّه

بعد وفاته . كان ابو بكر رجلاً تاجراً قبل الخلافة . ومضى على عمله حين استخلف فلما رأى فى عمله ما يعيقه عن القيام بواجبه (نظر فى أمره فقال لا والله ما تصلح أمور الناس التجارة • وما يصلحهم الا التفرغ لهم والنظر في شأنهم • ولابد لعيالي مما يصلحهم • فترك التجارة واستنفق من مال المسلمين ما يصلحه ويصلح عياله يوماً بيوم ويحج ويعتمر وكان الذى فرضوا له في كل سنة ستة آلاف درهم • فلما حضرته الوفاة قال ردوا ما عندنا من مال المسلمين فانّي لا أصيب من هذا المال شيئاً ، وانّ أرضي التى بمكان كذا وكذا للمسلمين بما أصبت من أموالهم • فدفع الى ذلك عمر ولقوحا وعبداً صيقلاً وقطيفة ما تساوي خمسة دراهم)[٨] . وكان عمر بن الخطاب (اذا احتاج اتى صاحب بيت المال فاستقرضه ، فربّما اعسر عمر فيأتيه صاحب بيت المال يتقاضاه ، فيلزمه فيحتال له عمر . وربّما خرج عطاؤه فقضاه)[٩] • وكان علي بن أبي طالب (اذا دخل بيت المال ونظر الى ما فيه من الذهب والفضّة قال :

ابْيضّي واصْفري وغُري غيْري إنيّ من الله بكل خير)[١٠] .

وكانت شدة الخلفاء الراشدين على أهلهم وذويهم كشدّتهم على أنفسهم . كان هؤلاء أول من يُنهى عن شيء يريد الخليفة ان ينهى الناس عنه . ولم تكن لتشفع لهم قرابة عند الخليفة فيما يعرض لهم من الامور . وقد حُرموا من مناصب الحكم دفعاً لما قد يلحق بهم وبآبائهم من تهمة الاثرة والمحاباة (كان عمر اذا اراد أن يأمر المسلمين بشيء أو ينهاهم عن شيء مما فيه صلاحهم بدأ بأهله وتقدم اليهم بالوعظ لهم والوعيد على خلافهم أمره)[١١] .

وقد دعاهم حرصهم على السير بالامة وشؤونها سيراً سليماً نزيهاً ،

---

(٨) الطبري ٢/٦٢١ .
(٩) نفس المصدر ٣/٢٧٦ .
(١٠) العقد الفريد ٤/٣١٢ ـ ٣١٣ .
(١١) الطبري ٣/٢٧٥ .

الى التشديد فى اختيار العمال والولاة . فما كانوا ليولوا أحداً على عمل لهم الا بعد ان يتوثقوا من صلاحه وعفته وعدله • وكانت أولى الدلائل عندهم على استقامة المرشّح وصلاحه ، زهده فى الحكم والولاية . اذ ان الزاهد التقيّ يرى في هذه المهمة عبئا قد لا يتمكن من القيام بثقل فروضه • فاذا أدرك الخليفة ان فى المرشّح ميلاً الى العمل حرمه منه اعتقاداً منه انما يسعى اليه لغرض من أغراض الدنيا (أراد عمر بن الخطاب رضى الله عنه أن يستعمل رجلاً . فبدر الرجل فطلب منه العمل ؟ فقال عمر : والله لقد كنت اردتك لذلك . ولكن من طلب هذا الامر لم يُعن عليه)[١٢] فاذا وجدوا من يتوسمون فيه الكفاءة زوّدوه بنصحهم وارشادهم وحذّروه وتوعدوه ان هو خالف حدود الله فى سيرته بالرعيّة . وكانت وصاياهم تنصب على العدل بين الناس والرأفة بهم وتفقّد أمورهم والتواضع لهم والاستماع الى شكاواهم والسوّية بينهم والوفاء بحقهم فى العطاء والانصاف معهم فى الجباية . وطلبوا اليهم ان يتثبتوا من البيّنات قبل الحكم ويراجعوا انفسهم في حكم ظهر لهم فيه خطأ • وان لا يحكموا بالهوى ولا تأخذهم في الحق محاباة . وان يبتعدوا عن مواطن الشبهة ويقنعوا بالقليل الذى يسدّ الحاجة . وان لا يمدّوا يداً الى أموال المسلمين وان يحافظوا على امنهم وانفسهم وأموالهم . لقد خلّف الراشدون مجموعة ضخمة من هذه الوصايا تبيّن لنا مدى ادراكهم العميق لواجباتهم وشعورهم بالمسؤوليات العظام التى ائتمنتهم عليها الامة[١٣] .

وعلى الرغم من تحوّط الخلفاء الراشدين فى اختيار عمّالهم والتشديد عليهم في الوصية وأخذ العهود والمواثيق منهم لم يطمئنوا الاطمئنان كله الى سلامة أعمال الولاة جميعها فقد قدّروا ان لابد يوجد بينهم من لا يقوم بواجبه كما يريدون سواء كان ذلك عن غفلة أو قصد ،

---

(١٢) العقد الفريد ١/٢٤ .

(١٣) أنظر وصية لعمر بن الخطاب في هذا المعنى ، البيان والتبيين ٢/٤٧ ـ ٤٨ وأخرى لعلي بن ابي طالب ، الطبري ٣/٥٥٦ .

وهذا ما أشار اليه عمر بن الخطاب حين تمنى لو تمكن من الاقامة فى كل مصر من أمصار العالم الاسلامي شهرين ليقف بنفسه على سير الامور (لئن عشت ان شاء الله لأسيرنّ فى الرعيّة حولاً فانّى أعلم أن للناس حوائج تقطع دونى أمّا عمالهم فلا يرفعونها الىّ وأمّا هم فلا يصلون الينا . فأسير الى الشام فاقيم بها شهرين ثم أشير الى الجزيرة فأقيم فيها شهرين ثم أسير ...)[١٤] .

ولهذا لم يغفل الخلفاء أمر مراقبة الولاة والعمال فى الامصار على الرغم من ثقتهم بهم . فقد كانوا يكتبون لهم بين حين وآخر يسألونهم عن شؤون ولايتهم ويعيدون عليهم الوصيّة بمثل ما زوّدوهم به عند استعمالهم . وكانوا يستطلعون أخبارهم بسؤال القادمين من ولاياتهم أو باستدعائهم للاجابة عما يبدر منهم من عمل مخالف يحمل خبره الى الخليفة . ولما لم تكن الدولة آنذاك تملك من وسائل التفتيش والرقابة على موظفيها ما تملكه الدولة الحديثة فقد ترك الامر فى هذا الشأن الى ذمم العمال والى الوازع الدينى والخلقى عندهم يسيرون بهديه ويكون عليهم شاهداً ورقيباً .

غير ان الذي أوصى به القرآن الكريم في هذا الباب وما سنّه الرسول الاكرم وخلفاؤه الراشدون لم يحل دون زيغ بعض الولاة وميلهم الى الاخذبنعيم الدنيا والجنوح الى استغلال مناصبهم فى كثير من ذلك أو قليل ، ولم يتجرد بعضهم عن العاطفة والهوى فى بعض أحكامه ولم تتنزه عهودهم عن الهنات والمآخذ سواء ذلك عن عمد أو غفلة أو خطأ فى الرأى والاجتهاد .

وعلى الرغم من حزم الخلفاء الراشدين ويقظتهم فى تتبع واستطلاع سيرة الولاة لم يكن باستطاعتهم ان يلموا بما كان يجرى فى الولايات والاقاليم جميعها أو يحيطوا باخبار القادة والولاة والقضاة والجباة على اختلاف مراتبهم واماكن عملهم وفترات حكمهم وتعدد القضايا والامور التى تعرض لهم فى ولاياتهم . ذلك ان الدولة كانت ناشئة تعوزها الاجهزة

---

(١٤) الطبري ٣/ ٢٧١ ـ ٢٧٢ .

الادارية التى تنظم دورة العمل فيها . وقد اتسعت فى فترة وجيزة ولم يكن ما يصل بين اجزائها غير الوسائل البدائية التى لم يستطع الوضع الجديد ان يكيفها وفق ما تلزم به ضرورات الادارة والضبط .

ومهما يكن من أمر هذه العوامل ودورها فى الحيلولة دون الاحاطة بسير الامور فى الولايات احاطة تامة سريعة من قبل المسؤولين الكبار فى العاصمة فقد تهيئات للدولة وسيلة ليست من أجهزتها تعينها على مراقبة الحالة فى الولايات وتسمعها شكوى الاقاليم . هذه الوسيلة هى صحافة العصر الممثلة فى أدبه ، خاصة هذا الادب الذى وقف جانباً من شعره ونثره على تتبع سيرة الولاة والكشف عن اخطائهم وهفواتهم .

ونحن اذ نعرض لهذا اللون من الادب الذى جعلناه مدار بحثنا لا نريد به هذا الادب الذي جاشت به نقمة شخصية صبت غضبها على هذا أو ذاك من الولاة لانها أخفقت فى حمله على تلبية رغبة ذاتية فراحت تسلقه بالسنة حداد مشهرة به وطاعنة مؤلبة عليه . ولا نريد به هذا الادب الذى دفعت اليه عصبية قبلية أو سياسية فباتت تغض الطرف عن اخطاء الولاة الذين هم من رهطها وتشهّر بالذين ليسوا منها فى عمومة أو شيعة . وانما نعنى به هذا الادب الذى جهر بالشكوى تحدوه رغبة الاصلاح والنصح والارشاد ولم يعلنها محاولة منه فى الطعن بالسياسة العامة وسعياً لاستبدال السلطة المركزية فهو يختلف عن أدب الاحزاب المعارضة اذ انه يعترف بهذه السلطة ومن ثم يطلبها بتقويم الظالمين والمنحرفين من ولاتها بينما نرى ان أدب الاحزاب يتظلم من السلطة المركزية ذاتها ولا يرى صلاح الامر الا فى تنحيتها عن الحكم وتمكين الكتلة الناطق بلسانها منه .

وأول ما يطالعنا من هذا الادب فى عهد عمر بن الخطاب . وهو عهد الفتوحات التى فتحت باب الغنائم والثروات على العرب . ويبدو ان الخير الذى ساقه الله على العرب فى الامصار قد حرّك فى نفوس بعض العمّال غريزة الطمع فراحوا يجمعون الثروات الخاصة ويتنعمون بملاذ الحياة

التى توفرها لهم هذه الثروات ، مما حمل الخليفة على مساطرتهم اموالهم . وكان الذى نبهه الى هذا التحوّل فى سيرة فريق من عمّاله فيما يروى عن مالك بن أنس ان شاعراً كتب اليه يقول(١٥) .

نحجٌّ اذا حجّوا ونغزو اذا غزوْا ... فانّى لهم وفْرٌ ولسنا بذي وفْر
اذا التاجر الهندي جاء بفارةٍ ... من المسْك راحت في مفارقهم تجرى
فدونك مالَ الله حيث وجدتَه ... سيرضون ان شاطرتَهم منك بالشطر

فالشاعر فى أبياته ، كما نرى ، يتساءل ، متعجباً مستنكراً ، عن مصادر الثروة الطارئة التى أصابها الولاة وهم بعد مثله ومثل أصحابه من عامّة الناس فى ظروف العيش وأسباب الرزق فمن أين تاتى لهم هذا الثراء الذى باتوا يرفلون بنعيمه ونعومته لو لم يمدّوا ايديهم الى بيب المال ؟ ! والشاعر اذ يشير الى هذا الثراء المريب والمال المغتصب من بيت أموال المسلمين فهو يدعو الخليفة الى استرجاعه . ومهما يكن الرأى فى الصلة التى تعقدها الرواية بين المناسبة التى قيلت فيها الابيات والقرار الذى اتخذه الخليفة ، فالثابت ان الخليفة قد شاطر بعض عماله اموالهم فعلاً . وان الابيات صريحة في موضوعها وهو الموضوع الذي عالجه الخليفة وأجرى أمره عليه .

ومرة أخرى نرى الشعر ينبرى داعياً الى الانصاف ورفع الحيف والسوية بين الناس في المعاملة . فقد روى ان عمر بن الخطاب كتب الى سعد بن أبى وقّاص يوم القادسية أن يعطى الناس على قدر ما معهم من القرآن فقال سعد لعمرو بن معد يكرب ، ما معك من القرآن ؟ قال : ما معي شيء ، قال : ان أمير المؤمنين كتب الىّ أن أعطي الناس على قدر ما معهم من القرآن . فقال عمرو :

اذا قتلنا ولا يبكي لنا أحدٌ ... قالت قريشٌ الا تلك المقادير
نُعطى السويَّة من طعن له نَفَذٌ ... ولا سويَّة إذ تُعطى الدنانير

(١٥) العقد الفريد ٥/٢٨١ .

فكتب سعد بأبياته الى عمر فكتب اليه أن يُعطى على مقاماته في الحروب[١٦] .

وليس من المستبعد أن يرد الخليفة بالايجاب على مثل هذه الصيحات كما تشير الروايتان اللتان اوردتا الشعر ذلك للذى نعرف ما كان من حرصه على استطلاع أمور الولاة وسيرتهم فى الرعيّة والاستماع الى شكوى الناس ورفع ما قد يلحق بهم من مظلمة وايداء واجحاف .

ثم كان أن مالت السياسة العامة التي ظلت عادلة منصفة على عهدي أبي بكر وعمر ، الى الاثرة والمحاباة ومسايرة العواطف ، وكان ذلك على عهد الخليفة عثمان اذا استغلّ المقرّبون اليه عطفه تارة وضعفه تارة أخرى فجعلوا يجمعون من مغانم الحكم ما يؤاتيهم به هذا الضعف واللطف ، مما سبب النقمة عليه كما هو معروف . وهنا أيضا نرى الشعر يتصدى لسياسة المحاباة والهوى والعواطف . قال عبدالرحمن بن حنْبل الجُمحي يندد بعثمان وسياسته[١٧] :

فأحْلِفُ باللّه ربّ الأنا م ما كتب الله شيئاً سُدى
ولكن خلقت لنا فتنةً لكى نُبتلى بك أو تُبْتلى
فانّ الأمينيْن قد بيّنا مناراً لحقّ عليه الهدى[١٨]
وأعطيت مروان خمس العبا د هيهات شأوك ممن شأى[١٩]

والابيات واضحة صريحة فيما تتحدث عنه . فهى اذ تذكر بالخير سيرة الخليفتين أبى بكر وعمر وأمانتهما ونهجهما العادل المستقيم ، لتشكو مرّ الشكوى من هذه المحنة التى جرّت اليها سياسة عثمان ومحاباته لفريق من أعوانه وأقربائه محاباة مكّنتهم مما ليس لهم به حق من أموال المسلمين .

---

(١٦) نفس المصدر ٢/٦٦ .
(١٧) العقد الفريد ٤/٢٨٣ ـ ٢٨٤ .
(١٨) الاميناان أبو بكر وعمر .
(١٩) وهب عثمان لمروان بن الحكم خمس ما جاءه من فتح أفريقية . انظر العقد الفريد ٤/٢٨٣ . شأى القوم : سبقهم .

والملاحظ ، على أيّة حال ، ان هذا اللون من الادب ، شعراً كان أم نثراً ، لم تكثر ظروفه فى عصر الخلفاء الراشدين . ذلك للذى نلاحظه من قلّة في نماذجه . ومردّ ذلك ، فيما نرى ، هو ان عصر الراشدين كان خاضعاً فى تصريفه لامور الناس الى الممثل والقيم التى أرست قواعدها المدرسة الخلقية التى أقامها الرسول الاكرم . فالخلفاء فى المدينة هم الرعيل الاول من روّاد هذه المدرسة . وأن أغلب العمّال والولاة هم ممن أدرك عصر الرسول ، فكان الذى زوّدوا به أنفسهم من تعاليم هذه المدرسة قد أشربها حب النهج السوي والسيرة النقية الصالحة الزاهدة ، مما أمن الناس على أموالهم وأنفسهم وحقوقهم . وقد قلّ من شذّ منهم عن هذا النهج فقلّت لذلك الشكوى والاحاديث والاشارات الى مثل هذا الموضوع فى أدب هذه الفترة .

ثم دالت دولة الراشدين وقام على أعقابها الحكم الاموي . وهو حكم يختلف عن حكم الراشدين فى مفاهيمه وسيرته ورسالته . فقد قلب شورى الاسلام ارثاً يتداوله بيت واحد . وصرف أموال المسلمين فى وجوه لم يشرّع لها الاسلام . واختار عماله وولاته على أساس العصبيّة والولاء للبيت المالك . وكان قيامه على أثر معارك دامية ومراوغات سياسية. حتى اذا تمكن من الامر ، بطش ونكّل بالمعارضين له ، الامر الذى أثار النقمة والشحناء والبغضاء فى نفوس فريق كبير من الامّة . فانتزعت الثقة من النفوس ، ثقة الحكّام فى الرعيّة ، وثقة الرعيّة فى ولاة أمرها وبات الامر كما عبّر عنه عبدالملك بن مروان اذ يقول : (الا تنصفوننا يا معشر الرعيّة ؟ تريدون منّا سيرة أبى بكر وعمر ولم تسيروا فى أنفسكم ولا فينا بسيرة رعيّة أبي بكر وعمر ، أسأل الله أن يعين كلاًّ على كل)(٢٠) وللرعية أولى بهذا القول من رعاتها الامويين الذين لم يسيروا فيها سيرة الراشدين لتكون هى كرعيّة الراشدين أمناً واطمئناناً وسمعاً وطاعة . لقد عهدت الرعيّة عمر بن الخطاب يقوم فى يوم حار شديد الحرّ يعدّ

(٢٠) البيان والتبيين ١/٢٦٥ .

إبل الصدقه ويكتب الوانها وأسنانها حرصاً منه على حفظها وصيانتها[٢١] . ولما صار الامر الى عبدالملك بن مروان رأته يأمر لجرير بمائة ناقة من أموال المسلمين وثمانية من الرّعاء وجامة من ذهب تكون محلبا . كل ذلك في قصيدة قالها فى مدحه[٢٢] . فكيف للرعيّة أن تطمئن الى ان مالها وما عليها من حقوق فى بيت المال فى أيد أمينة كأيدى الراشدين بعد أن رأته ملكاً شخصياً تتصرف فيه الاريحية ! واذ يشرّع الله تعالى (ألاّ تزر وازرة وزر أخرى وأنْ ليس للانسان الاّ ما سعى) ترى الامّة زياد بن أبى سفيان والي البصرة للامويين يقرر أن يأخذ (الولىّ بالولىّ ، والمقيم بالظاعن ، والمقبل بالمدبر ، والمطيع بالعاصي)[٢٣] ، فاين هذه السيرة مما اوصى به الله وأخذ به الراشدون وكيف لها ان تجد عدلاً وانصافاً فى ظل حكم يوضّح زياد فلسفته ونهجه . ونحن نعرف ما كان من أمر الحجاج وبطشه وتنكيل يزيد بن المهلّب والى العراق من بعده بآل الحجاج هذا ، وعصبية خالد بن عبدالله القسري والي العراق لهشام بن عبدالملك وملاحقته للقيسية ، يضاف الى ذلك انصراف اغلب الخلفاء الامويين الى التمتع بملاذّ الدنيا وترفها وتركهم الولاة يدبّرون أمور الناس حسب اهوائهم .

ولهذا كله كثرت الشكوى من ولاة هذا العصر وتوددت صورها بتعدد المظالم والهفوات التى ارتكبوها . وتعالت صيحات الاصلاح والانصاف . ونهض الادب ليعبّر عما يلاقيه الناس من أذى . فيشكو تارة من بعيد ويحمل الشكوى الى الخلفاء أنفسهم تارة أخرى . يعتب حيناً ويغضب حيناً آخر وهو على أحواله كلها انّما يصدر عن عاطفة بعيدة عن الدوافع السياسية والقبليّة ويخلص صيحته للاصلاح وحده ، ويرجو أن يتدارك ولاة الامر فى الشام ما أفسدوه هم تارة وما أفسده عمالهم فى الامصار تارة أخرى .

---

(٢١) الطبري ٣/٢٧١ .
(٢٢) الاغاني ٨/٦٦ ـ ٦٨ .
(٢٣) البيان والتبيين ٢/٦٣ .

ومن ذلك ما قاله عُقبْة بن هبيْرة الاسدى لمعاوية يندد بطمع الامويين واستحواذهم على أموال الناس ويلومهم على اختيار المغمورين والوضعاء امراء وولاة على الناس ويدعوهم الى العدل والانصاف[٢٤] :

« معاويَ » إنّنا بشرٌ فأسجح ... فلسنا بالجبال ولا الحديد[٢٥]
أكلتم أرضنا فجرد تموها ... فهل من قائم أو من حصيد
فهبنا أمّة ذهبت ضياعاً ... « يزيد » أميرها و « أبو يزيد »
أتطمع في الخلود اذا هلكنا ... وليس لنا ولا لك من خلود
ذروا خوَل الخلافة واستقيموا ... وتأمير الاراذل والعبيد[٢٦]
وأعطونا السويّة لا تزركم ... جنودٌ مردفات بالجنود

وقال عبدالله بن همام السلولي حين لم ينفّذ النعمان بن بشير والي الكوفة ما أمر به معاوية من زيادة أعطياتهم[٢٧] :

زيادتَنا « نعمان » لا تحرمنّنا ... خفِ الله فينا والكتاب الذى تتلو
فانّك قد حُمّلت فينا أمانةً ... بما عَجزتْ عنه الصلاخمة البُزْل[٢٨]
وقبلك قد كانوا علينا أئمة ... يهمهّم تقويمنا وهم عُصْل
اذا أنصتوا للقول قالوا فأحسنوا ... ولكنّ حُسْنَ القول خالفَه الفعل
يذمّون دنياهم وهم يرضونها ... أفاويق حتى ما يدِرُّ لها ثُعْل[٢٩]

ووفدت سودة بنت عمارة بن الاشتر على معاوية تشكو اليه ظلم عامله على قومها وتسأله أن يعزله . وتذكّره بسيرة الخليفة من قبله وقضائه

---

(٢٤) خزانة الارب ٢/٢٢٥ ـ ٢٢٦ .
(٢٥) سجح : سهل ولان .
(٢٦) الخول : الاماء والعبيد وغيرهم من الحاشية .
(٢٧) الاغاني (ط. بولاق) ١٤/١٢٠ .
(٢٨) الصلخم : الشديد القوى .
(٢٩) أفاويق : جمع فيقه وهو اللبن الذي يكون في الضرع بين الحلبتين . الثعل : الزيادة في ضرع الناقة والشاه .

العادل وعقابه للمسيئين من عماله . قالت : (يا أمير المؤمنين ، انّك للناس سيّد ولامورهم مقلّد ، والله سائلك عما افترض عليك من حقّنا ، ولا تزال تقدم علينا من ينهض بعزك ، ويبسط سلطانك ، فيحصدنا حصاد السنبل ، ويدوسنا دياس البقر ، ويسومنا الخسيسة ، ويسألنا الجليلة ، هذا ابن أرطأة قدم بلادى وقتل رجالي وأخذ مالي ، ولولا الطاعة لكان فينا عز ومنعة ، فاما عزلته عنا فشكرناك ، واما لا فعرفناك ، فقال معاوية : إيّاىَ تهددين بقومك ! والله لقد هممت أن اردّك على قتب أشرس[٣٠] فينفذ حكمه فيك فسكتت ثم قالت :

صلّى الأله على روح تضمّنه قبرٌ فأصبح فيه العدل مدفونا
قد حالف الحقّ لا يبغي به ثمناً فصار بالحق والايمان مقرونا

قال : ومن ذلك ؟ قالت : علي بن أبي طالب رحمه الله تعالى ؟ قال ما أرى عليك مثه أثراً ؟ قالت : بلا ، أتيته يوماً فى رجل ولاّه صدقاتنا ، فكان بيننا وبينه ما بين الغثّ والسمين ، فوجدته قائماً يصلّي ، فانفتل من الصلاة ، ثم قال برأفة وتعطّف : ألك حاجة ؟ فأخبرته خبر الرجل ، فبكى ثم رفع يديه الى السماء ، فقال : اللهمّ انّي لم آمرهم بظلم خلقك ، ولا ترْك حقّك ؛ ثم أخرج من جيبه قطعة من جراب ، فكتب فيها : بسم الله الرحمن الرحيم . قد جاءتكم بيّنة من ربّكم ، فأوفوا الكيل والميزان بالقسط ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا في الارض مفسدين ، بقيّة الله خيرٌ لكم ان كنتم مؤمنين وما أنا عليكم بحفيظ . اذا اتاك كتابي هذا فاحتفظ بما في يديك ، حتى يأتى من يقبضه منك ، والسلام . فأخذته منه يا أمير المؤمنين ما خزمه بخزام ، ولا ختمه بختام ، فقال معاوية اكتبوا لها بالانصاف لها والعدل عليها ، فقالت : ألِيَّ خاصة أم لقومي عامّة ؟ قال : وما أنت وغيرك ؟ قالت : هى والله اذاً الفحشاء واللؤم ان لم يكن عدْلاً

---

(٣٠) القتب : الرحل على قدر سنام البعير . وأشرس : صفة لمحذوف وهو البعير أو صفة للقتب ، بمعنى الخشن .

شاملا ، والا يسعني ما يسع قومي ؟ قال : هيهات ، لمّظكم ابن أبي طالب الجرأة على السلطان ، فبطيئاً ما تغطمون)[٣١] .

ووفدت عِكْرشة بنت الاطرش بن رواحة على معاوية تشكو اليه عمّال الصدقات وظلمهم وما لحق قومها من بؤس وصاروا اليه من ضيق وفاقة . فسألها معاوية عن حاجتها فقالت : (انّه كانت صدقاتنا تؤخذ من اغنيائنا فتردّ على فقرائنا ، وانا قد فقدنا ذلك ، فما يجبر لنا كسير ، ولا ينعش لنا فقير . فان كان ذلك عن رأيك ، فمثلك من انتبه عن الغفلة ، وراجع التوبة ، وان كان عن غير رأيك ، فما مثلك من استعان بالخونة ، ولا استعمل الظَلَمة . قال معاوية يا هذه انّه ينوبنا من أمور رعيّتنا أمور تنبثق ، وبحور تنفهق ؟ قالت : يا سبحان الله ، والله ما فرض الله لنا حقاً فجعل فيه ضرراً على غيرنا وهو علاّم الغيوب ؟ قال معاوية : هيهات يا أهل العراق ، نبّهكم علي بن أبي طالب فلن تطاقوا . ثم أمر بردّ صدقاتهم فيهم وانصافها)[٣٢] .

وفى النصوص المتقدّمة اشارات صريحة الى التحوّل الذى طرأ على سيرة الولاة عما كانت عليه فى عهد الراشدين فقد اشتدّوا فى معاملتهم للناس الا القليل منهم . ورفعوا الحرمة التى اضفاها الراشدون على أموال المسلمين فصارت تجمع دون تقدير عادل وتجبى لولاة الامر فى الشام دون أن تسدّ بها حاجات الذين شرّعت لهم . ولم تنصب الشكوى على الامويين وحدهم بل شملت الزبيرين الذين أتيح لهم أن يحكموا شطراً من الامة الاسلامية لفترة دامت عشر سنوات . ولم يخرج الناس فى تذمرهم من هؤلاء عن المواضيع التى اداروا حولها شكواهم من الامويين والتى أثارها ترف الولاة وبذخهم مرة واهمالهم لشؤون الرعيّة وعجزهم عن تدبير الامور مرة أخرى . فهذا أبو الاسود الدؤلي يشكو الى عبدالله بن الزبير عامله على البصرة الحارث بن عبدالله الملقب بالقُباع الذى لا همّ له الا

---

(٣١) العقد الفريد ٢/١٠٣ ـ ١٠٤ .
(٣٢) نفس المصدر ٢/١١١ ـ ١١٢ .

التمتّع بملاذ الحياة من زواج ومأكل والذى ليست له القدرة على إحكام الامر وتدبيره والقطع برأى والثبات عليه[٣٣] :

أمير المؤمنين جزيت خيراً أرحنا من قُباع بني المغيره
بلوناه ولمناه فأعيا علينا ما يُمرّ لنا مريره[٣٤]
على ان الفتى نكْحٌ أكول ومسهابٌ مذاهبه كثيره

وتزوّج مصعب بن الزبير والي العراق لاخيه عبدالله من عائشة طلحة فأمرها ألف ألف درهم فكتب أنس بن زُنيْم الليثي الى عبدالله بن الزبير يقول[٣٥] :

أبلغ أميرَ المؤمنين رسالة من ناصح لك لا يُريد خداعا
بضع الفتاة بألف الفٍ كاملٍ وتبيت قادات الجيوش جياعا
لو لأبي حفص أقول مقالتي وأبثّ ما أبثّكم لارتاعا

وتناول الشعراء الخلفاء أنفسهم بالنقد واللوم والتقريع اذ رأوهم يتنكرون لمن خدمهم بالامس ويتشاغلون عنهم متمتعين بما أوتوا من نعيم الملك قال فى هذا جوّاس بن القعطل الكلبى يخاطب عبدالملك بن مروان[٣٦] :

أعبدَ المليك ما شكرت بلاءنا فكل في رجاء الأمن ما أنت آكل
بجابية الجوْلان لولا ابن بحْدلٍ هلكت ولم ينطق لقومك قائل
فلمّا علوت الشام في رأس باذخٍ من العزّ لا يستطيعه المتناول
نفحت لنا سَجْل العداوة معرضاً كأنّك مما يُحدث الدهر جاهل[٣٧]

وقال ايضاً[٣٨] :

---

(٣٣) البيان والتبيين ١/١٩٦ .
(٣٤) المريرة : الحبل الطويل الدقيق . وامرار الحبل احكام فتله . والمراد هنا انه لا يقضى في أمر .
(٣٥) الاغاني ٣/٣٦١ .
(٣٦) الحماسة ٤/٦٩ ـ ٧٠ .
(٣٧) نفحه بكذا : أعطاه اياه . السجل : الدلو فيها ماء ، العطاء ، النصيب .
(٣٨) الحماسة ٤/٧٠ ـ ٧١ .

صبغت أميّة بالدّماء رماحنا وطوت أميّة دوننا دنياها
أ أميّ ربّ كتيبةٍ مجهولةٍ صيد الكماة عليكم دعواها
كنّا ولاة طعانها وضرابها حتى تجلّت عنكم غُمّاها
فالله يجزي لا أميّةُ سعينا وعلاً شددنا بالرماح عُراها

وتشكّى المحاربون من قادتهم فجعلوا يرفعون أمرهم للعمال مطالبين بأرزاقهم وحقوقهم فى العطاء ويعرّضون ببخل امراء الجيش الذين يكدّسون الاموال حتى تفسد دون أن يعطوا الجند منها شيئاً . ومن ذلك قول أحدهم يخاطب الحجّاج ويشكو اليه المغيرة بن المهلب ومساعده الرُّقاد(٣٩) :

ولو علم ابن يوسف ما نلاقي من الآفات والكُرب الشداد
لفاضت عينه جزَعاً علينا وأصلح ما استطاع من الفساد
ألا قل للامير جزيت خيراً أرحنا من مغيرة والرُّقاد
فما رزقا الجنود بها قفيزاً وقد ساست مطامير الحصاد(٤٠)

ولعل أصدق وأوضح ما وصلنا من نصوص فى موضوع التذمّر والشكوى من الولاة هو شعر الراعى النُميْري الذى خاطب به عبدالملك بن مروان وقصّ له فيه باسلوب مؤثّر تجاوز السعاة حدود العدل والانصاف وتعسّفهم فى تقدير ما على قومه من حقوق ووسائلهم الغليظة العنيفة فى تحصيلها . وكيف ان هذا الظلم قد افقر قومه وأسلمهم الى حالة من البؤس والفاقة ، فتفرّقوا فى عرض الفلاة هاربين من شروط السعاة القاسية وضربهم الموجع وليس معهم غير ابل مهزولة أخذ السعاة الظالمون خيرها وأحسنها وأكرمها وكذبوا على الخليفة فكتبوا له انها الفِصَال الصغار . والشاعر فى أبياته يستصرخ الخليفة ويستنجد به

---

(٣٩) الكامل ٢/٢٣٦ .
(٤٠) قفيز : مكيال . ساس الطعام اذا وقع فيه السوس . مطامير : جمع مطمورة وهي الحفيرة تحت الارض تخبأ فيها الحبوب .

ويرجوه ان يتدارك الامر ويرفع المظالم عن قومه مؤكداً لـه انهم عرب مسلمون يقومون بالفروض ويقرون بحق الزكاة . فمن الظلم أن يؤخذوا بمثل مـا أخـذهم به هؤلاء السعاة الظـالمون يقـول الراعي من قصـيدة طويلة[٤٠] :

أخليفة الرحمـن إنّا معشـرٌ ... حنفاء نسـجد بـكرة وأصيلا
عربٌ نرى لله في أموالنـا ... حـقّ الزكـاة منزّلا تنزيـلا
ان السـعاة عصـوك يوم أمرتهـم ... وأتوا دواهى لو علمت وغولا
آخذوا العريف فقطّعوا حيزومـه ... بالاصـبحيّة قائمـاً مغـلولا[٤٢]
حتى اذا لـم يتركوا لعظـامـه ... لحمـاً ولا لفؤاده معقولا[٤٣]
جـاءوا بصكهم واحـدب أسأرت ... منه السياط يراعةً إجفيلا[٤٤]
نسي الامانـة من مخـافة لقّح ... شمس تركن بضيعه مجدولا[٤٥]
أخـذوا حمولته فأصبح قـاعداً ... لا يستطيع عن الديار حويلا
يدعـو أمير المؤمنين دونـه ... خرقٌ تجرُبه الرياح ذيولا[٤٦]
كهداهد كسر الرمـاة جناحـه ... يدعـو يقارعـة الطـريق هديلا
أخليفة الرحمـن ان عشـيرتى ... أمسى سوامهم عزين فلولا[٤٧]
قومٌ على الاسلام لمـا يتركوا ... ما عونهم ويضيّعوا التهليلا[٤٨]

---

(٤١) جمهرة أشعار العرب ٣٤١ ـ ٣٤٩ ؛ ومنها في خزانة الارب (٣/١٣١ ـ ١٣٢) ٢٤ بيتا وفي طبقات فحول الشـعراء (٤٣٩ ـ ٤٤١) ٨ أبيات .

(٤٢) العريف : السيد ، الرئيس ؛ الحيزوم : وسط الصدر ؛ الاصبحيه : السياط ح. أصبح .

(٤٣) المعقول : ما يعقل ، العقل . الادراك .

(٤٤) أشار الشارب في الاناء أبقى فيـه بقية ؛ اليراعة : القصبة الجوفاء ؛ اجفيلا : خائفا .

(٤٥) اللقح : السياط ؛ الشمس : الطوال ؛ البضيع : اللحم .

(٤٦) الخرق : الصحراء الواسعة .

(٤٧) عزين : جماعات .

(٤٨) الماعون هنا الزكاة .

قطعوا اليمامة يُطردون كأنهم قومٌ أصابوا ظالمين قتيلا
يحدون حدْبا مائلاً أشرافها في كل مقربة يدعن رعيلا[٤٩]
شهريْ ربيع ما تذوق لبونُهم الا حموضاً وخمة وذبيلا[٥٠]
وأتاهم يَحْيى فشد عليهم عقداً يراه المسلمون ثقيلا[٥١]
كُتبا تركن غنيَّهم ذا عيْلة بعد الغنى وفقيرهم مهزولا
فتركت قومى يقسمون أمورهم أإليك أم يتربصون قليلا
أنت الخليفة عدله ونوالُه واذا أردت لظالم تنكيلا
فأرفع مظالم عيَّلت أبناءنا عنا وانقذ شِلْونا الماكولا[٥٢]

والشعر كما نرى طافح بالالم ، وأنين المثقل بالغرم ، وتوجع المغبون ولهفة المظلوم . وهو الى ذلك تصوير دقيق لجانب من المظالم التى كانت تقع على الناس من قبل الحكام ، والخيانة التي يرتكبها فريق من العمال فى حق الامّة والدولة حين يتجاوزون الحدود فى تقدير ما على الناس من ضرائب • وحين يزوّرون على الدولة في أصناف ما يجمعون • فشروطهم ، كما يروى الشاعر ، ثقيلة لا يطيقها الناس وطريقتهم فى الجباية قاسية غليظة . فهم يعمدون الى الضرب والاذلال . ثم هم الى هذا يكذبون على امرائهم اذ يكتبون لهم بخلاف ما يجمعون من أموال وأنعام ليحتفظوا لانفسهم بفروق الاثمان والاصناف .

لقد قام الشاعر النميْرى بهذه السفارة النبيلة لدى الخليفة أكثر من مرة فرفع شكوى الناس اليه فى شعر مؤثّر ، أخلصه لوجه الحق والعدل . دون أن يخلطه بأىّ غرض أو يلوّح الى أى مطمع خاص . واذا كانت قصيدته التى أثبتنا جزءً منها قد ضمّت أبياتاً فى مدح الخليفة

---

(٤٩) الحدب : الابل المهزولة ؛ أشرافها : اسمنتها ؛ المقربة : الطريق المختصر •
(٥٠) الحموض ، المرّ المالح من النبات •
(٥١) (يحمى) أحد السعاة •
(٥٢) الشلو : العضو من أعضاء اللحم • ولد الناقة •

وتمجيد بيته فانما كان ذلك ، فيما يبدو ، تمهيدا لعرض الموضوع الرئيسي الذى حدا به الى زيارة الخليفة وهو رفع المظالم عن قومه . ومن الجدير بالذكر هو ان الشاعر لم يشر ، من قريب أو بعيد ، الى نوال الخليفة وجوائزه على عادة الشعراء المتكسبين بمدحهم . وقد روي عنه انه كان يقول : من لم يروِ لي من أولادي هـذه القصيدة وقصيدتي التي أوّلها (بان الأحبّة بالعهد الذى عهدوا) فقد عقّني . وتصف الرواية القصيدة الثانية بانها فى معنى القصيدة السابقة[٥٣] . وقد عثرنا على ثلاثة أبيات من نفس البحر والقافية ، أكبر الظن أنّها من قصيدة (بان الاحبّة ...) . يصف الشاعر فيها حالة البؤس والشقاء التى صار اليها قومه والتى تساوى فيها الفقراء منهم والاغنياء وذلك من ظلم السعاة ايضاً[٥٤] :

أمّا الفقير الذى كانت حلوبته ... وَفْقَ العيال فلم يُترك له سَبَدُ[٥٥]
واختلّ ذو المال ، والمثرون قد بقيت ... على التلاتل من أموالهم عُقُدُ[٥٦]
فـان رفعت بهـم رأسـاً نعشـتهم ... وان لقوا مثلها في قابل فسدوا[٥٧]

وقد روي ان عبدالملك بن مروان قد سأله ، بعد أن سـمع البيت الاخير ، عن حاجته فقال تَردّ عليهم صدقاتهم فتنعشهم ، فقال عبدالملك : هذا كثير ، قال : أنت أكثر منه ، قال : قد فعلت . فسلْني حاجة تخصّك قال : قد قضيت حاجتي . قال : سل حاجتك لنفسك . قال : ماكنت لافسد هذه المكرمة[٥٨] .

ويبدو ان الراعى انما فضّل هاتين القصيدتين من شـعره للذى

---

(٥٣) خزانة الارب ٣/١٣١ .
(٥٤) ابن سلام/٤٤٢ .
(٥٥) لم يترك له سبد : لم يترك له شيء ، والسبد في الاصل الوبر ويكنى به عن الابل . والحلوبة : الناقة التي تحلب . ومعناه انهم أخذوا من الفقير كل ما لديه حتى ناقته التي هي كفاية عياله .
(٥٦) التلاتل : الشدائد ج. تلتلة ؛ العقد : البقايا .
(٥٧) قابل : العام القادم .
(٥٨) الاغاني (ط. بولاق) ٢٠/١٧٢ .

حمّلهما من غرض نبيل . وقد أوصى اولاده بحفظهما أثراً طيباً وحديثاً حسناً عنه . وفى الواقع اننا مازلنا نقرأ شعره هذا فيترك فى نفوسنا أثراً سواء من حيث الصياغة الفنيّة الرقيقة المؤثّرة التى أفرغ فيها خواطره ، أو من حيث هذه الخواطر ذاتها اذ انها تتصل بموضوع انسانى مازال يحرّك حسّ المجتمعات ويشغل أفكارها وهو موضوع الظلم والعدل .

ولئن كان بعض الخلفاء الامويين قد استجاب لهذه الاستغاثات فانما كان ذلك ، فيما يظهر ، بدافع الاريحية والتفضل اذ يرق لاستعطاف المشتكين فيجود عليهم بردّ صدقاتهم أو بشيء من نواله . دون الانتصاف ممن انتهكوا الحدود ، اذ ليس في ما لدينا من أخبار هذا الباب ما يشير الى ان الذين رفعت اليهم هذه الظلامات من امراء الشام قد حاسبوا هؤلاء السعاة والعمال الظالمين وأنزلوا بهم عقوبة تتناسب مع تجاوزهم للحدود المفروضة فى مجالات عملهم . وقد يكون عمر بن عبدالعزيز ، الخليفة العادل التقي ، هو الوحيد الذي اشتد في محاسبة العمال ومراقبتهم والذي لم يتردد في اقامة الحد على المخالف منهم . فقد عاقب يزيد بن المهلب بالحبس على أموال أصابها فى زمن ولايته على العراق وطالبه بردّها فلم يفعل(٥٩) . وعزل الجرّاح بن عبدالله عن خراسان فقد زاره وفد من أهلها يشكوه اليه وكان مما قاله احد رجال الوفد : (يا أمير المؤمنين عشرون ألفاً من الموالي يغزون بلا عطاء ولا رزق ومثلهم قد أسلموا من أهل الذّمة يؤخذون بالخراج . وأميرنا عصبي جاف يقوم على منبرنا فيقول : أتيتكم حفياً وأنا اليوم عصبي ، والله لرجلٌ من قومي أحبُّ الىّ من مائه من غيرهم . وبلغ من جفائه أن كمّ درعه يبلغ نصف درعه وهو ، بعد ، سيفٌ من سيوف الحجاج قد عمل بالظلم والعدوان)(٦٠) فما كان من عمر بن عبدالعزيز الا ان استقدمه وعزله .

وقد عمل عمر بن عبدالعزيز على اشاعة العدل ورفع الظلم ومحاربة

---

(٥٩) الطبري ٥/٣١٢ .

(٦٠) الطبري ٥/٣١٣ ـ ٣١٤ .

الفساد وشدّد بالوصية فى ذلك على عماله ، وفاء لمثله الزكيّة الصالحة في الحكم وادراكاً لواجبه نحو الأمّة ، واصلاحاً لما فسد من أمر الحكم قبله . ولعل الكتاب الذى وجهه الى عامله بالكوفة يكفي ايضاحاً لسياسة هذا الرجل الصالح ، فقد كتب يقول : (أما بعد فان أهل الكوفة قد أصابهم بلاء وشدّة وجور فى أحكام الله وسنّة خبيثة استنّها عليهم عمال السوء . وان قوامَ الدين العدلُ والاحسان ، فلا يكونن شيءٌ أهمّ اليك من نفسك فانه لا قليل من الاثم . ولا تحمل خراباً على عامر ولا عامراً على خراب . انظر الخراب فخذ منه ما أطاق وأصلحه حتى يعمر . ولا يؤخذ من العامر الا وظيفة الخراج فى رفق وتسكين لاهل الارض ...)[٦١] .

غير ان النهج السوىّ لهذا الخليفة العادل لم يحل دون وقوع المظالم . فقد اتسعت رقعة الدولة ، وتباعدت أمصارها وكثر عمالها والقائمون على خدمتها . وتهاونت العهود السابقة فى مراقبة العمال وأغضت عن مساوئهم فأمنوا العقوبات • وضعف الوازع الديني الذي كان قويا في توجيهه وسيطرته على النفوس فى عهد الراشدين .

ولهذا لم يعدم عصره من الادب الذى ردد صيحة الاصلاح وطالب بتقويم الظالمين من العمّال فقد تنادى الشعراء بهذه الصيحة فى شعر صريح شديد فى تعريفه وعنيف فى تجريحه . قال كعب الاشقرى يخاطب عمر بن عبدالعزيز[٦٢] :

ان كنت تحفظ ما يليك فانّما ... عمّال أرضك بالبلاد ذئاب
لن يستجيبوا للذى تدعو له ... حتى تجلّد بالسيوف رقاب

---

(٦١) نفس المصدر ٥/٣٢١ .

(٦٢) البيان والتبيين ٣/٣٥٨ .

بأكفّ منصلتين أهل بصائر في وقعهنّ مزاجر وعقاب

وقام اليه رجل وهو على المنبر فقال(٦٣) :

ان الذين بعثت في أقطارها نبذوا كتابك واستُحِلّ المحْرم
طُلْس الثياب على منابر أرضنا كلٌّ يجور وكلُّهم يتظلم(٦٤)
وأردت أن يليَ الامانة منهم عدْلٌ وهيهات الأمين المسلم

والذي يلاحظ على هذا الشعر انه قاسٍ في لهجته ، عنيف في هجومه ، مؤلم فى تجريحه على خلاف ما عهدناه فى الشعر الذى عالج المواضيع ذاتها في صدر الدولة الاموية من اعتدال في اللهجة وتحفظ في النقد واتزان فى عرض الشكوى . ولعلّ الذى جعل شعراء هذه الفترة يشتدون فى النقد هو اسراف الولاة فى تجاوز الحدود واشتداد جرأتهم على الحقوق من جهة ، وشدة الخليفة عمر بن عبدالعزيز على الباطل ونقمته على المنكر من جهة أخرى ، مما شجع الشعراء على أن يقولوا كلمتهم صريحة جريئة .

وصارت حركة التذمّر والشكوى من العمّال تتسع كلما اقتربت الدولة الاموية من نهايتها . ذلك أنّ السلطة المركزية فى الشام بدأت تفقد سيطرتها على ممثليها المنتشرين فى أقاليم متباعدة كما ان البيت الحاكم قد شغل بنزاع امرائه على الحكم مما أضعف هيبة الخلافة وسلطانها ، فبات العمال يدبّرون أمور ولاياتهم بمعزل عنها ويسيرون فيها بالذى تمليه عليهم أهواؤهم سوى نفر قليل عصمته بقيّة من دين وعدل .

ومضى الشعر فى ترصّده لاعمالهم واستقصائه لاخبارهم ، يفضح المتهتّك منهم ويقرّع الظالم ويلوم المهمل على اغفاله لامور الرعيّة .

---

(٦٣) نفس المصدر ٣/٣٥٩ .
(٦٤) الطلس : الوسخ من الثياب ، والمراد هنا عدم العفّة .

قال يحيى بن نوفل في بلال بن أبي بُرْدة وكان يلي عملاً في البصرة على عهد هشام بن عبدالملك . وقد فضح بلال هذا بالشراب[٦٤] :

وأمّا بلالٌ فذاك الذي ... يميل الشراب به حيث مالا
يبيت يمصّ عتيق الشراب ... كمصّ الوليد يحاف الفصالا
ويصبح مضطرباً ناعساً ... تخال من السُكر فيه احولالا
ويمشي ضعيفاً كمشي النزيف ... تخال به حين يمشي شِكالا[٦٦]

وقال فيه أيضا يفضح نفاقه ورياءه[٦٧] :

أبَلال انّي رابني من شأنكم ... قولٌ تزيّنه وفعلٌ منكر
مالي أراك اذا أردت خيانةً ... جعل السجود بُحرّ وجهك يظهر
متخشّعاً طَبِناً لكل عظيمةٍ ... تتلو القرآن وأنت ذئب أغبر[٦٨]

وتعالت الاستغاثات فى الامصار البعيدة والثغور تردد شكوى الناس من اهمال الخلفاء لهم واسلامهم الى قادة وعمال لا يحكمون من أمرهم شيئاً ولا يدفعون عنهم ضرّاً . اوردوا الناس المهالك واسلموهم الى الاعداء فهذا الجُنَيْد بن عبدالرحمن والي خراسان لخالد القسرى على عهد هشام بن عبدالملك يخسر المعركة يوم الشعب وهى واقعة حصلت فى سمرقند بينه وبين الترك ويخسر المسلمون معها آلافاً من الشهداء وتحزّ الخسارة في نفوسهم ، فيخاطب ابن السجْف هشاما في عتب ولوم ويحذّره من مغبة اهماله[٦٩] :

اذكر يتامى بأرض الترك ضائعةً ... هزْلى كأنّهم في الحائط الحَجَل
وارحم والاّ فهبها أمّةً دمِرت ... لا أنفس بقيت فيها ولا ثُقل

---

(٦٥) نهاية الارب ٤/٩٤ .
(٦٦) الشكال : حبل تشد به قوائم الدابة .
(٦٧) ابن قتيبة (ط. اوربا) ٤٦٦ .
(٦٨) طبن الشيء وللشيء : فطن له .
(٦٩) الطبري ٥/٤١٩ .

لا تأملن بقاء الدهر بعدهم ... والمرء ما عاش ممدود له الأمل
لاقوا كتائب من خاقان معلمةً ... عنهم يضيق فضاء السهل والجبل
لما رأوهم قليلاً لا صريخ لهم ... مدّوا بايديهم لله وابتهلوا
وبايعوا ربَّ موسى بيعةً صدقت ... ما في قلوبهم شك ولا دَغَل

وهذا آخر وهو الشرعبي الطائى يشكو الجنيد ، القائد الخاسر ، الى خالد القسرى فيقول بعد توجع ورثاء على ما صار اليه المسلمون فى هذه الموكه[٧٠] :

الى الله أشكو نبوةً في قلوبها ... ورعبا ملا أجوافها يتوسَّع
فمن مبلغ عنّي ألوكاً صحيفة ... الى خالد من قبل أن نتَوزَّع
بأنّ بقايانا وان أميرنا ... اذا ما عددناه الذليلُ الموقّع
هم أطمعوا خاقان فينا وجندَه ... الا ليتنا كنّا هشيماً يزعزع

ويقول ابن عرْس للجنيْد نفسه يقرّعه ويلومه ويؤنّبه على رميه الناس فى معركة لم يحسن تدبيرها[٧١] :

فتَقت ما لم يلتئم صدْعُه ... بالجحفل المحتشد الزائد
تبكي لها ان كشفت ساقها ... جدْعاً وعقراً لك من قائد
تركتنا أجزاء معبوطةٍ ... يقسمها الجازر للناهد[٧٢]
أضحت سمرقند وأشياعها ... أحْدوثة الغايب والشاهد
ليتك يوم الشِعْب في حفرة ... مرموسة بالمَدَر الجامد[٧٣]
طار لها قلبك من خيفةٍ ... ما قلبك الطائر بالعائد
خمسون ألفاً قتلوا ضيعةً ... وانت منهم دعوة الناشد

---

(٧٠) نفس المصدر ٥/٤٢٢ .
(٧١) نفس المصدر ٥/٤٢٣ .
(٧٢) المعبوطة : الذبيحة تنحر وهي سمينة فتية من غير علّة ؛ الناهد : الاسد .
(٧٣) المدر : الطين العلك الذي لا يخالطه رمل .

وتزداد النقمة على سادة الشام الذين لم يعملوا على تبديل الحال واصلاح الامر والذين لم يحفظوا للناس حقوقهم . لقد اتخذوا منهم سداً وسنداً يحفظ لهم ملكهم ليظلوا متنعمين بخير الملك ونعمه . قال رجل من عبدالقيس فى خراسان(٧٤) :

تولّت قريشٌ لذّة العيش واتّقت ... بنا كلّ فجّ من خراسان أغبرا
فليت قريشاً أصبحت ذات ليلةٍ ... يعومون في لجّ من البحر أخضرا

وتضطرب الامور على هؤلاء السادة السادرين فى اهمالهم ويلتفت احدهم وهو العباس بن الوليد بن عبدالملك لينذر بني مروان بقرب نهايتهم(٧٥) :

انّي أعيذكم بالله من فتنٍ ... مثل الجبال تسامى ثم تندفع
انّ البرية قد ملّت سياستكم ... فاستمسكوا بعمود الدين وارتدعوا
لا تلحمنّ ذئابَ الناس أنفسكم ... انّ الذئاب اذا ما ألحمت رتعوا
لا تبقرنّ بأيديكم بطونكم ... فثمّ لا حسرة تغني ولا جزع

فما استمسكوا بعمود الدين ولا ارتدعوا ، وملت الامّة سياستهم اذ لم تنفع معهم صيحات شكواها وتذمّرها . فانضم التظلّم من سيرة الولاة الى التذمر السياسي الذي حرّكته الكتل السياسية المعارضة منذ قيام دولتهم فكان الذى نعرف من نهايتهم .

والخلاصة ، ان الادب الذى استعرضنا نماذج من شعره ونثره كان أدباً يهدف الى الاصلاح ويسعى الى تقويم الانحراف فى سيرة المسؤولين . كان دوره يشبه دور ما نسميه الان بالمعارضة البناءة . فهو يختلف عن الادب الملتزم بسياسة كتلة حزبية تناوىء السلطة القائمة كما كان الشأن فى أدب الخوارج والشيعة والزبيرين ، والذى لم ير فى الامويين غير اناس اغتصبوا

---

(٧٤) الطبري ٥/٤٣٦ .
(٧٥) نفس المصدر ٥/٥٤٥ .

الحكم . وهو يختلف عن الهجاء الفردى الذى حركته دوافع ذاتية . ولذلك نجد ان هذا الادب الاصلاحى قد تجنب الحديث فى أمور شخصيّة لا صلة لها بالموضوع الذى يعالجه . فهو مثلاً لم يمس ذوى الشخص الذى يتعرض له على عادة الهجاء الفردى الذى لم يدع للخصم أباً أو أخاً أو قريباً الا وأصابه بسهم . كما اننا لا نرى فيه نزعة النفاق والرياء التى كانت تدفع بعض الشعراء في هذا العصر الى هجاء عامل مدحوه حتى اذا غضب الخليفة عليه أو دالت دولته تناوشوه بالطعن والتجريح ارضاءً للخليفة الناقم عليه .

ومما يؤكد صدق النيّة وسلامة القصد عند أصحاب هذا الادب ما جاء في الاخبار التي روت ظروف أقوالهم من اشارات الى نزعة الايثار وسمو القصد عندهم وترفعهم عن الجزاء المادي • فكم من مرة عرض الخلفاء على هذا أو ذاك منهم أن يسأله حاجة خاصة فامتنعوا عن ذلك دفعاً لما قد يظن فى سعيهم وتنزيهاً للقصد الذى جاءوا من أجله .

ونلاحظ ان الشعر الذى تحدث عن هذه الظلامات لم يفرغ حديثه في قصائد الا نادرا • بل جاء في أبيات منفردة ومقطوعات • كما اننا نلاحظ قلة فى نصوصه النثرية والشعرية اذا قيس ما وصلنا منه بما وصلنا من نصوص الاغراض الاخرى التى عالجها الادب فى هذه الفترة . ولعل السبب في هذه القلّة لا يُردُّ الى قلّة الظروف التي دفعت لقوله ، بل الى تردد الناس والرواة فى حفظه وانشاده خوفاً من عقاب الذين تناولهم بالنقد من المسؤولين . ولعل عوامل الحزبية والعصبيّة قد عملت عملها فى طمس جزء منه حين رأته يطعن فيمن هو منها في عشيرة أو حزب •

وبعد ، ان الادب الذى جعلناه مدار بحثنا يسعفنا بالردّ على الذين لا يرون فى الادب العربى القديم غير أدب توزّعته أغراض ذاتية وطبعته بظروفها الموقوتة وخصائصها الفردية وانصرف عن شؤون الناس العامة لا يُعنى بجانب من جوانبها . فالادب الذى عرضنا له قد وقف انتاجه

الشعري والنثري على معالجة مواضيع تتناول مصالح الناس ومشاكلهم من تنظيم العلاقة بينهم وبين حكامهم وتوفير الامن لهم والعدل لهم والوفاء بحقوقهم والدعوة الى احترام الانظمة والقوانين والمحافظة على أموال الامة من التبذير وحماية الافراد من سطوة الحكام وجورهم الى غير ذلك من الامور التى يعمّ نفعها مجموع من انتظمتهم الامة دون حصره فى نطاق بيت أو قبيلة أو اقليم من أقاليمها .

المراجع :

١ – ابن سلام = طبقات فحول الشعراء
٢ – ابن قتيبة = الشعر والشعراء
٣ – الاغاني – أبو الفرج الاصفهاني ط· دار الكتب
– أبو الفرج الاصفهاني ط· بولاق
٤ – البيان والتبيين – الجاحظ ط· عبدالسلام هارون
٥ – تاريخ الامم والملوك – الطبري ط· الاستقامة
٦ – جمهرة اشعار العرب – القرشي ط· الطهطاوي
٧ – الحماسة – أبو تمام ط· محمد محي‌الدين عبدالحميد
٨ – خزانة الادب – البغدادي ط· السلفيه
٩ – الشعر والشعراء – ابن قتيبة ط· أحمد محمد شاكر
– ابن قتيبة ط· اوربا
١٠ – الطبري = تاريخ الامم والملوك
١١ – طبقات فحول الشعراء – ابن سلام ط· محمود محمد شاكر
١٢ – العقد الفريد – ابن عبد ربه ط· أحمد أمين وجماعه
١٣ – الكامل – المبرّد ط· لجنة من العلماء
١٤ – نهاية الارب – النويري ط· دار الكتب